



العرب

- الأرض والشعب
- الحكم والاقتصاد
- الديانة والاجتماع





۲۰



۲۰



موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - هي في الحقيقة عبارة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشرى قولاً وفعلاً، وتوجيهاً وسلوكاً، وقلب بها موازين الحياة، فبدل مكان السيئة الحسنة، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، حتى عدل خط التاريخ وَغَيَّرَ مجرى الحياة في العالم الإنساني، ولا يتم إحضار هذه الصورة الرائعة إلا بعد المقارنة بين البيئة التي سبقت هذه الرسالة وبين ما آلت إليه بعدها.

وهذا يقتضى تقديم فصول موجزة عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام، وعن تاريخ الحكومات والإمارات والنظم القبلية التي كانت سائدة في ذلك الزمان، مع صور من الديانات والمِلَل والنحل والعادات والتقاليد، والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد خصصنا لكل من ذلك هذا الباب، وإليكم تلك الفصول:

موقع العرب:

كلمة العرب تنبى عن الصحارى والقفار، والأرض المُجْدِبَةُ التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أطلق على قوم قَطُنُوا تلك الأرض واتخذوها موطناً لهم.

وجزيرة العرب يحدها غرباً البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقاً الخليج العربى وجزء من بلاد العراق الجنوبية، وجنوباً بحر العرب الذى هو امتداد لبحر الهند، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق، على اختلاف في بعض هذه الحدود، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

ولجزيرة العرب أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعى والجغرافى؛ فإنها في وضعها الداخلى محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب؛ ولأجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصناً منيعاً لم يستطع الأجانب أن يحتلوها ويسيطروا عليها سيطرتهم ونفوذهم. ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراراً في جميع الشئون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لولا هذا السد المنيع.





وأما بالنسبة إلى الخارج، فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم، وتلتقى به برًا وبحرًا، فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم؛ ومن ثم آسيا الوسطى وجنوبها والشرق البعيد، وكذلك تلتقى كل قارة بالجزيرة بحرًا، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأسًا.

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها موئلًا للأمم، ومركزًا لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة، والفنون.

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب، فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام؛ بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

١ - العرب البائدة: وهم العرب القدامى الذين انقرضوا تمامًا ولم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد، وثمود، وطّش، وجديس، وعِمْلَاق، وأُمَيْم، وجُزْهم، وحَضُور، ووَبار، وعَبِيل، وجاسم، وحَضْرَمَوْت، وغيرها.

٢ - العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطَان، وتسمى بالعرب القحطانية.

٣ - العرب المستعربة: وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل عليه السلام، وتسمى بالعرب العدنانية.

أما العرب العاربة - وهي شعب قحطان : فمَهْدُها بلاد اليمن، وقد تشعبت قبائلها وبطونها من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. فاشتهرت منها قبيلتان: حَمِير بن سبأ، وكَهْلَان بن سبأ، وأما بقية بنى سبأ - وهم أحد عشر أو أربعة عشر بطناً - فيقال لهم: السبئيون، وليست لهم قبائل دون سبأ.

أ - فأما حمير فأشهر بطونها:

١ - قُضَاعَة: ومنها بهراء وَبِلَّ والقَيْن وكَلْب وعُذْرَة وَوَبْرَة.

٢ - السَّكاسِك: وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير، ولقب زيد: السكاسك، وهي غير سكاسك كندة الآتية في بنى كَهْلَان.

٣ - زيد الجمهور: ومنها حمير الأصغر، وسبأ الأصغر، وحضور، وذو أصبح.





ب - وأما كهلان فأشهر بطونها:

همدان، وألهان، والأشعر، وطبي، ومذحج (ومن مذحج: عَنَس والنَّعْج)، ولَحْم (ومن لحم: كندة، ومن كندة: بنو معاوية والسَّكُون والسكاسك)، وجَذَام، وعاملة، وخَوْلَان، ومَعَاْفِر، وأنمار (ومن أنمار: خُثْعَم وبَجِيلَة، ومن بجيلة: أحمس) والأزد، (ومن الأزد: الأوس، والخزرج، وخزاعة، وأولاد جَفْنَة ملوك الشام المعروفون بآل غسان).

وهاجرت بنو كهلان عن اليمن، وانتشرت في أنحاء الجزيرة، يقال: كانت هجرة معظمهم قبيل سَيْل العَرَم حين فشلت تجارتهم لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام.

ويقال: بل إنهم هاجروا بعد السيل حين هلك الحرث والنسل بعد أن كانت التجارة قد فشلت، وكانوا قد فقدوا كل وسائل العيش، ويؤيده سياق القرآن [سورة سبأ: ١٥-١٩].

ولا غرو إن كانت هناك - عدا ما تقدم - منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان، فقد يشير إلى هذا بقاء حمير مع جلاء كهلان.

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام:

١ - الأزد:

وكانت هجرتهم على رأى سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقياء، فساروا يتنقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال والشرق. وهاك تفصيل الأماكن التي سكنوا فيها بعد الرحلة نهائيًا:

* نزل عمران بن عمرو في عُمان، واستوطنها هو وبنوه، وهم أزد عُمان.

* واستوطنت بنو نصر بن الأزد ثمامة، وهم أزد شُوءة.

* وعَطَف^(١) ثعلبة بن عمرو مزيقياء نحو الحجاز، فأقام بين الثعلبية وذى قار، ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة، فأقام بها واستوطنها، ومن أبناء ثعلبة هذا: الأوس والخزرج، ابنا حارثة بن ثعلبة.

* وتنقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه في ربوع الحجاز، حتى نزلوا بمر الظهران، ثم افتتحوا الحرم فقتلوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة.

(١) أى: مال.



* وسار جَفَنَةُ بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه، وهو أبو الملوك الغساسنة؛ نسبة إلى ماء في الحجاز يعرف بغسان، كانوا قد نزلوا بها أولاً قبل انتقالهم إلى الشام. وانضمت البطون الصغيرة إلى هذه القبائل في الهجرة إلى الحجاز والشام، مثل كعب بن عمرو، والحارث بن عمرو، وعوف بن عمرو.

٢ - لَحْمٌ وَجُدَامٌ:

انتقلوا إلى الشرق والشمال، وكان في اللخمين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالخير.

٣ - بنو طَيْئٍ:

ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجليلين أجاً وسلمى، وأقاموا هناك، حتى عرف الجبلان بجبلى طيئ.

٤ - كِنْدَةُ:

نزلوا بالبحرين، ثم اضطروا إلى مغادرتها فتنزلوا بـ (حضر موت)، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين، ثم نزلوا نجدًا، وكونوا هناك دولة كبيرة الشأن، ولكنها سرعان ما فُتيت وذهبت آثارها.

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف في نسبتها إليه - وهي قضاة - هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق، واستوطن بعض بطونها مشارف الشام وشمال الحجاز^(١).

وأما العرب المستعربة، فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق، من مدينة يقال لها: (أر) على الشاطئ الغربي من نهر الفرات، بالقرب من الكوفة، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه المدينة، وعن أسرة إبراهيم عليه السلام، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد.

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حَرَّان، ومنها إلى فلسطين، فاتخذها

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها: نسب معد واليمن الكبير، جهرة النسب، العقد الفريد، قلائد الجمان، نهاية الأرب، تاريخ ابن خلدون، سبائك الذهب، وكتب الأنساب الأخرى، وما كتب عن تاريخ العرب قبل الإسلام، واختلفت المصادر اختلافًا كبيرًا في تعيين زمن هذه الهجرات، ولا سبيل إلى البت في هذا الموضوع، وقد أثبتنا ما ترجح عندنا بعد إدارة النظر في القرائن والملايسات، والله أعلم بالصواب.



قاعدة لدعوته، وكانت له جولات في أرجائها وأرجاء غيرها من البلاد، وفي إحدى هذه الجولات أتى إبراهيم عليه السلام على جبار من الجبابرة، ومعه زوجته سارة، وكانت من أحسن النساء، فأراد ذلك الجبار أن يكيد بها، ولكن سارة دعت الله تعالى عليه فرد الله كيده في نحره، وعرف الظالم أن سارة امرأة صالحة ذات مرتبة عالية عند الله، فأخدمها هاجر ^(١) اعترافاً بفضلها، أو خوفاً من عذاب الله، ووهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام ^(٢).

ورجع إبراهيم عليه السلام إلى قاعدته في فلسطين، ثم رزقه الله تعالى من هاجر ابنه إسماعيل، وصار سبباً لغيره سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفى هاجر مع ولدها الرضيع - إسماعيل - فقدم بهما إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتية السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعها عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفذ الزاد والماء، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله، فصارت لهما قوتا وبلاغاً إلى حين. والقصة معروفة بطولها ^(٣).

وجاءت قبيلة يمانية - وهى جُرْهُمُ الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل. يقال: إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة، وقد صرحت رواية البخارى أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، وقبل أن يشب، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادى قبل ذلك ^(٤).

وكان إبراهيم عليه السلام يتحلى إلى مكة ليطالع تركته بها، ولا يعلم بالضبط عدد هذه

^(١) المعروف أن ذلك الجبار كان فرعون من فراعنة مصر، وأن هاجر كانت أمة مملوكة له، ولكن رجح الكاتب الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفوري - رحمه الله - أنها كانت حرة، وكانت ابنة فرعون، واستند لذلك إلى ما كتبه المحققون من أهل الكتاب في شروح صحائفهم. « ينظر لذلك: رحمة للعالمين ٢ / ٣٤، ٣٦، ٣٧ » وقال ابن خلدون، وهو يحكى حواراً دار بين عمرو بن العاص رضي الله عنه وبين أهل مصر أنهم قالوا له: إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم في بعضها دولة، فقتلوا الملك، وسبوا، ومن هناك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم. « تاريخ ابن خلدون ٢ / ١ / ٧٧ ».

^(٢) انظر في تفصيل أصل القصة: صحيح البخارى، ح (٢٢١٧، ٢٦٣٥، ٣٣٥٧، ٣٣٥٨، ٥٠٨٤، ٦٩٥٠).

^(٣) انظر: صحيح البخارى: كتاب الأنبياء، ح (٣٣٦٤، ٣٣٦٥).

^(٤) المصدر نفسه، ح « ٣٣٦٤ ».





الرحلات، إلا أن المصادر المعتمدة حفظت لنا أربعة منها:

١ - فقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل، فقام بامثال هذا الأمر: [! " # \$ % & ' () * + , . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; <] [الصفات].

وقد ذكر في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق؛ لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها.

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشب إسماعيل، أما الرحلات الثلاث الأخرى فقد رواها البخاري بطولها عن ابن عباس مرفوعاً، وملخصها:

٢- أن إسماعيل عليه السلام لما شب وتعلم العربية من جُرْهُم، وأنفسهم وأعجبهم زوجته امرأة منهم، وماتت أمه، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته، فجاء بعد هذا الزواج، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما، فشكت إليه ضيق العيش، فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى (وهي ابنة مُضَاض ابن عمرو، كبير جرهم وسيدهم على قول الأكثر).

٣ - وجاء إبراهيم عليه السلام مرة أخرى بعد أن تزوج إسماعيل هذه الزوجة الثانية، فلم يجده، فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما، فأثنت على الله بخير، فأوصى إلى إسماعيل أن يُبْنِ عَتَبَةَ بابه.

٤ - ثم جاء إبراهيم عليه السلام بعد ذلك فلقى إسماعيل، وهو يَبْرِي نَبْلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده، والولد البار الصالح الرشيد عن أبيه، وفي هذه المرة بنى الكعبة، ورفع قواعدها، وأذن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله ^(١).

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مُضَاض اثني عشر ولداً ذكراً، وهم: نابت أو نايوط، وقَيْدَار، وأدْبَائِيل، ومِشَام، ومِشَاع، ودوما، ومِيشَا، وحدد، وتيما، ويَطُور، ونَفِيس، وقَيْدُمان.

(١) انظر: صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، ح (٣٣٦٤، ٣٣٦٥).





وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة، سكنت كلها في مكة مدة من الزمان، وكانت جل معيشتهم إذ ذاك التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها، ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيدار.

وقد ازدهرت حضارة الأنباط - أبناء نابت - في شمال الحجاز، وكونوا دولة قوية عاصمتها البتراء - المدينة الأثرية القديمة المعروفة في جنوب الأردن، وقد دان لهذه الدولة النبطية من بأطرافها، ولم يستطع أحد أن يناوئها حتى جاء الرومان وقضوا عليها. وقد جنحت طائفة من المحققين من أهل العلم بالأنساب إلى أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج إنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل، وبقاياهم في تلك الديار.

وإليه مال الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه، فقد عقد باباً عنوانه: (نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام)، واستدل عليه ببعض الأحاديث، ورجح الحافظ ابن حجر في شرحه أن قحطان من آل نابت بن إسماعيل عليه السلام ^(١).

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة، يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معدّ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها. وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول: «كذب النسابون»، فلا يتجاوزه ^(٢)، وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان؛ مضعفين للحديث المشار إليه، ولكنهم اختلفوا في هذا الجزء من النسب اختلافا لا يمكن الجمع بين أقوالهم، وقد مال المحقق الكبير العلامة القاضي محمد سليمان المنصورفوري - رحمه الله - إلى ترجيح ما ذكره ابن سعد - والذي ذكره الطبري والمسعودي وغيرهما في جملة الأقوال - وهو أن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أباً بالتحقيق الدقيق ^(٣). وسيأتى.

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل، ح (٣٥٠٧)، فتح الباري ٦ / ٦٢١ - ٦٢٣، وانظر: نسب معد واليمن الكبير للكلبي ١ / ١٣١، وتاريخ ابن خلدون ٢ / ١ / ٤٦، ٢ / ١ / ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٢ / ٢٧٢ - ٢٧٦.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٥٦، وتاريخ الطبري ٢ / ٢٧٢، ٢٧٣، ومروج الذهب للمسعودي ٢ / ٢٧٣، ٢٧٤، وتاريخ ابن خلدون ٢ / ٢ / ٢٩٨، وفتح الباري ٦ / ٦٢٢، ورحمة للعالمين ٢ / ٨٧، ١٤ - ١٧.



وقد تفرقت بطون مَعَدٍّ من ولده نَزَار - قيل: لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة: إياد وأنهار وربيعة ومُضَر، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما، فكان من ربيعة: ضُبَيْعَة وأسد، ومن أسد: عَنَزَة وجَدِيلَة، ومن جديلة: القبائل الكثيرة المشهورة مثل: عبد القيس، والنَّمر، وبنو وائل الذين منهم بكر وتَغْلِب، ومن بنى بكر: بنو قيس وبنو شيبان وبنو حنيفة وغيرها. أما عنزة فمنها آل سعود ملوك المملكة العربية السعودية في هذا الزمان.

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين: قَيْس عَيْلان بن مضر، وبطون إلیاس بن مضر، فمن قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو ثقيف، وبنو صَعَصَعَة، وبنو غَطَفَان. ومن غطفان: عَبَس، وذُبْيَان، وأشْجَع، وأغْصَر.

ومن إلیاس بن مُضَر: تميم بن مرة، وهَذِيل بن مُدْرِكة، وبنو أسد بن خزيمَة، وبطون كنانة بن خزيمَة، ومن كنانة: قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى، من أشهرها: جُحَح وسَهْم وَعَدِي ومَخْزُوم وتَيْم وزُهْرَة، وبطون قُصَي بن كلاب، وهى: عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونَوْفَل، والمطلب، وهاشم، وبيت هاشم هو الذى اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام ^(١).

قال عليه السلام: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم».

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله عليه السلام: «إن الله خلق الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل، فجعلنى من خير القبيلة، ثم تخير البيوت، فجعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً». وفى لفظ عنه: «إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً» ^(٢).

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبى عليه السلام ١٧٨٢/٤ ح (١)، والترمذى: كتاب المناقب،

باب فضل النبى عليه السلام ٥٤٤/٥ ح (٣٦٠٥) وبمعناه (٣٦٠٦).

(٢) المصدر الأخير نفسه ٥٤٥/٥ ح (٣٦٠٨، ٣٦٠٧).



موقع العرب وأقوامها ٢٩

ولما تكاثروا أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب، متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب.

فهاجرت عبد القيس، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها.

وخرجت بنو حنيفة بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحُجر، قَصَبَة اليمامة، وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر، فأطراف سواد العراق فالأُبُلَّةُ فَهَيْت.

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، ومنها بطون كانت تسكن بَكْرًا. وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة، من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين، إلى ما ينتهي إلى الحرة.

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة، بينهم وبين تيماء ديار بُحْثَرٍ من طيء، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران، وبقي بتهامة بطون كنانة، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب، فجمعهم، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم ^(١).

(١) يراجع لمزيد التفصيل: جهرة النسب، نسب معد واليمن الكبير، أنساب القرشيين، نهاية الأرب، قلائد الجمان، سبائك الذهب وغيرها.



الحكم والإمارة في العرب

كان حكام جزيرة العرب عند ظهور دعوة النبي ﷺ على قسمين:

- ١- ملوك مُتَوَجُّون - إلا أنهم في الحقيقة كانوا غير مستقلين.
 - ٢- رؤساء القبائل والعشائر - وكان لهم من الحكم والامتياز ما كان للملوك المتوجين، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال، وربما كانت لبعضهم تبعية للملك متوج.
- والملوك المتوجون هم: ملوك اليمن، وملوك مشارف الشام (وهم آل غسان) وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة لم تكن لهم تيجان. وفيما يلي موجز عن هؤلاء الملوك والرؤساء.

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات (أور) بخمس وعشرين قرناً قبل الميلاد، ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد. ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي:

١ - ما بين ١٣٠٠ إلى ٦٢٠ ق.م:

عرفت دولتهم في هذه الفترة بالدولة المعينية، ظهرت في الجوف؛ أي السهل الواقع بين نجران وحضرموت، ثم أخذت تنمو وتتسع وتسيطر وتزدهر حتى بلغ نفوذها السياسي إلى العُلا ومَعَان من شمالي الحجاز.

ويقال: إن مستعمراتها وصلت إلى خارج بلاد العرب، وكانت التجارة هي صلب معيشتهم، ثم إنهم بنوا سد مأرب الذي له شأن كبير في تاريخ اليمن، والذي وفر لهم معظم خيرات الأرض، [حَقَّ سَوَاؤُ الدِّكْرِ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا] Z [الفرقان].

وكان ملوكهم في هذه الفترة يلقبون بـ (مكرب سبأ) وكانت عاصمتهم مدينة (صِرَواح) التي توجد أنقاضها على بعد ٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الغربي من مدينة (مأرب)، وعلى بعد ١٤٢ كيلو متراً شرقي صنعاء، وتعرف باسم (خُرَيْبة). ويقدر عدد هؤلاء الملوك ما بين ٢٢ و ٢٦ ملكاً^(١).

(١) اليمن عبر التاريخ، ص ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠١-١١٣



٢ - ما بين ٦٢٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م:

وعرفت دولتهم في هذه الفترة بدولة سبأ، وقد تركوا لقب (مكرب) وعرفوا بـ (ملوك سبأ)، واتخذوا (مأرب) عاصمة لهم بدل (صرواح)، وتوجد أنقاض مأرب على بعد ١٩٢ كيلو متراً شرقي صنعاء^(١).

٣ - منذ سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٣٠٠ ق.م:

وعرفت الدولة في هذه الفترة بالدولة الحميرية الأولى؛ لأن قبيلة حمير غلبت واستقلت بمملكة سبأ، وقد عرف ملوكها بـ (ملوك سبأ وذى ريدان)، وهؤلاء الملوك اتخذوا مدينة (ريدان) عاصمة لهم بدل مدينة (مأرب)، وتعرف (ريدان) باسم ظفار، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من (يريم). وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير لبسط الأنباط سيطرتهم على شمال الحجاز أولاً، ثم لغلبة الرومان على طريق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمال الحجاز ثانياً، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثاً. وهذه العناصر هي التي سببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة.

٤ - منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام في اليمن:

عرفت الدولة في هذه الفترة بالدولة الحميرية الثانية، وعرف ملوكها بـ (ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت)، وقد توالى على هذه الدولة الاضطرابات والحوادث، وتتابع الانقلابات والحروب الأهلية التي جعلتها عرضة للأجانب حتى قضى على استقلالها. ففي هذا العهد دخل الرومان في عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م؛ مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلمات في سد مأرب، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة ٤٥٠ م، أو ٤٥١ م. وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب.

وفي سنة ٥٢٣ م قاد ذو نواس اليهودي حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران، وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً، ولما أبوا خدّ لهم الأخذود وألقاهم في النيران، وهذا الذي أشار إليه القرآن في سورة البروج بقوله: [+ ، - ، Z. الآيات [البروج].

(١) اليمن عبر التاريخ، ص ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠١-١١٣



وكان هذا الحادث هو السبب في نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أباطرة الرومان من بلاد العرب، فقد حرضوا الأحباش، وهياؤا لهم الأسطول البحري، فنزل سبعون ألف جندي من الحبشة، واحتلوا اليمن مرة ثانية، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥ م، وظل أرياط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة بن الصباح الأشرم - أحد قواد جيشه - سنة ٥٤٩ م، ونصب نفسه حاكماً على اليمن بعد أن استرضى ملك الحبشة وأرضاه، وأبرهة هذا هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل. وقد أهلكه الله بعد عودته إلى صنعاء عقب وقعة الفيل، فخلفه على اليمن ابنه يَكْسُوم، ثم الابن الثانى مسروق، وكانا - فيما يقال - شرا من أبيهما، وأخبت سيرة منه في اضطهاد أهل اليمن وقهرهم وإذلالهم.

أما أهل اليمن فإنهم بعد وقعة الفيل استنجدوا بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد، ونالوا الاستقلال في سنة ٥٧٥ م بقيادة معديكرب سيف بن ذى يزن الحميرى، واتخذوه ملكاً لهم، وكان معديكرب أبقى معه جمعا من الحبشة يخدمونه ويمشون في ركابه، فاغتالوه ذات يوم، وبموته انقطع الملك عن بيت ذى يزن، وصارت اليمن مستعمرة فارسية تتعاقب عليها ولاية من الفرس، وكان أولهم وهرز، ثم المرزبان بن وهرز، ثم ابنه التينجان، ثم خسرو بن التينجان، ثم باذان، وكان آخر ولاية الفرس، فإنه اعتنق الإسلام سنة ٦٢٨ م، وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن^(١).

الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم بلاد العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير «٥٥٧ - ٥٢٩ ق. م» ولم يكن أحد يناوئهم، حتى قام الإسكندر المقدونى سنة ٣٢٦ ق. م فهزم ملكهم دارا وبددهم وخضد شوكتهم، حتى تجزأت بلادهم، وتولاها ملوك عرفوا بملوك الطوائف، وقد ظل هؤلاء الملوك يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م. وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون، واحتلوا جزءاً من ريف العراق، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحوهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية.

(١) انظر في تفصيل ذلك: اليمن عبر التاريخ ص ٧٧-٨٣، ١٢٤ - ١٣٠، ١٥٧ - ١٦١ وغيرها، وتاريخ أرض القرآن ١/ ١٣٣ إلى نهاية الكتاب، وتاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٠١ - ١٥١، وفي تعيين السنين وتفصيل بعض الحوادث اختلاف كبير بين المصادر التاريخية، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل: «إن هذا إلا أساطير الأولين».



وأول من ملك من هؤلاء المهاجرين هو مالك بن فهم التَّنُوخِي من آل قحطان، وكان منزله الأنبار، أو مما يلي الأنبار، وخلفه أخوه عمرو بن فهم في رواية^(١). وجذيمة بن مالك بن فهم - الملقب بالأبرش والوضاح - في رواية أخرى^(٢).

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس في عهد أردشير بن بابك - مؤسس الدولة الساسانية سنة ٢٢٦م - فإنه جمع شمل الفرس، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه، وكان هذا سببا في رحيل قضاة إلى الشام، ولكن دان له أهل الحيرة والأنبار.

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه، إلا أن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جنود الفرس؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م.

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة والأنبار عمرو بن عدى بن نصر اللخمي (٢٦٨-٢٨٨م) وهو أول ملوك اللخمين، وأول من اتخذ الحيرة مقرا له، وكان في عهد كسرى سابور بن أردشير، ثم لم يزل الملوك من اللخمين من بعده يتولون الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز (٤٤٨-٥٣١م) وفي عهده ظهر مزدك، وقام بالدعوة إلى الإباحية، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء السماء (٥١٢-٥٥٤م) - يدعوه إلى اختيار هذا المذهب الخبيث، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة، فعزله قباذ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي.

وخلف قباذ كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٨م) وكان يكره هذا المذهب جدا، فقتل المزدك وكثيرا ممن دان بمذهبه، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن عمرو، لكنه أفلت إلى دار كلب، فلم يزل فيهم حتى مات.

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبه حتى كان النعمان بن المنذر (٥٨٣-

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٤٠، واختاره ابن خلدون في تاريخه ٢/ ٢٣٨ وأن جذيمة ولى بعد عمرو ابن فهم، وكان ابن أخيه مالك بن فهم.

(٢) اليعقوبي ١/ ١٦٩، والمسعودي ٢/ ٩٠.



(٦٠٥ م) فإنه غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى، فأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانئ بن مسعود سيد آل شيبان، وأودعه أهله وماله، ثم توجه إلى كسرى، فحبسه كسرى حتى مات. وولى على الحيرة بدله إيّاس بن قبيصة الطائى، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده، فأبى ذلك هانئ حمية، وأذن الملك بالحرب، ولم يلبث أن جاءته مرازمة كسرى وكتائبه فى موكب إيّاس، ودارت بين الفريقين معركة هائلة عند ذى قار، انتصر فيها بنو شيبان وانهمزت الفرس هزيمة نكراء. وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم^(١)، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ.

واختلف المؤرخون فى تحديد زمن هذه المعركة، فقليل: هو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل، وأنه ﷺ ولد لثمانية أشهر من ولاية إيّاس بن قبيصة على الحيرة. وقيل: قبل النبوة بقليل - وهو الأقرب. وقيل: بعد النبوة بقليل. وقيل: بعد الهجرة. وقيل: بعد بدر. وقيل غير ذلك.

وولى كسرى على الحيرة بعد إيّاس حاكماً فارسياً اسمه آزادبه بن ماهبيان بن مهربانداد، وظل يحكم ١٧ عاما (٦١٤ - ٦٣١ م) ثم عاد الملك إلى آل لخم سنة ٦٣٢ م، فتولى منهم المنذر ابن النعمان الملقب بالمعزور، ولكن لم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين^(٢).

الملك بالشام:

فى العهد الذى ماجت فيه العرب بهجرات القبائل سارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها، وكانوا من بنى سُلَيْح بن حُلْوَان الذين منهم بنو ضَجْعَم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة، فاصطنعهم الرومان؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكاً، ثم تعاقب الملك فيهم سنين، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهُبُولَة، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثانى الميلادى إلى نهايته تقريباً، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان، الذين غلبوا الضجاعمة على ما بيدهم وانتصروا عليهم، فولتهم الروم ملوكاً على عرب الشام، وكانت قاعدتهم مدينة بصرى،

(١) روى ذلك مرفوعاً عن رسول الله ﷺ خليفة بن خياط فى مسنده ص ٢٤، وابن سعد ٧/ ٧٧.

(٢) التفصيل عند الطبرى والمسعودى وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذرى وابن الأثير وغيرهم.



الحكم والإمارة في العرب ٣٥
ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جَبَلَة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ^(١).

الإمارة بالحجاز:

ولى إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته، وتوفى وله ١٣٧ سنة ^(٢)، ثم ولى واحد، وقيل: اثنان من أبنائه: نابت ثم قَيْدار، ويقال العكس، ثم ولى أمر مكة بعدها جدّها مُضاض بن عمرو الجُزْهُمِيّ، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم، وظلت في أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيء ^(٣).

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلاً لا يذكر، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بُخْتَنْصَر، وأخذ نجم عدنان السياسى يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عِرْق، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهمياً، بل كان عدنان نفسه ^(٤).

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق. م) وذهب برخيا - صاحب يرمياه النبی الإسرائيلي بَمَعَدَّ - إلى حران من الشام، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جَوْشَم بن جُلْهُمة، فتزوج بابنته مُعانة فولدت له نزاراً ^(٥).

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضافت أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة ^(٦)، الأمر الذى كان يغيظ العدنانيين ويثير حفيظتهم، ولما نزلت خزاعة بِمَرِّ الظَّهْران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك، فقامت بمعونة

(١) التفصيل عند الطبرى والمسعودى وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذرى وابن الأثير وغيرهم.
(٢) سفر التكوين ٢٥: ١٧، وتاريخ الطبرى ١/ ٣١٤، وفي قول عنده وعند يعقوبى ٢٢٢/١ وغيرهما: إنه توفى وله مائة وثلاثون سنة.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ١١١-١١٣، وقد ذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام.

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٥٥٩.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٥٥٩، ٢/ ٢٧١، وفتح البارى ٦/ ٦٢٢.

(٦) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٤.



من بطون عدنان - وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة - بمحاربة جرهم، حتى أجلتهم عن مكة، واستولت على حكمها في أواسط القرن الثاني للميلاد.

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء، قال ابن إسحاق: فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي ^(١) بغزالي الكعبة ^(٢)، وبحجر الركن الأسود فدفنهما في بئر زمزم، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً، وفي ذلك قال عمرو:

كأن لم يكن بين الحَجُّون إلى الصَّفا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صُرُوف الليالي والجُدود العَوائر ^(٣)
ويقدر زمن إسماعيل ^{عليه السلام} بعشرين قرناً قبل الميلاد، فتكون إقامة جرهم في مكة واحداً وعشرين قرناً تقريباً، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرناً.

واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال:
الأولى: الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة، والإجازة بهم يوم النفر من منى، وكان يل ذلك بنو الغوث بن مرة من بطون إلياس بن مضر، وكانوا يسمون صُوفَةً، ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمى رجل من صوفة، ثم إذا فرغ الناس من الرمي وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانب العقبة، فلم يجز أحد حتى يمرؤا، ثم يخلون سبيل الناس، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم.

الثانية: الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك في بنى عدوان.

الثالثة: إنساء الأشهر الحرم، وكان ذلك إلى بنى فُقَيْم بن عدى من بنى كنانة ^(٤).

(١) هذا غير مضاض الجرهمي الأكبر الذي مضى ذكره في قصة ^{عليه السلام}.

(٢) قال المسعودي: وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزاليين من الذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فقذفه «عمرو» في بئر زمزم، وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب في التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، والله أعلم مروج الذهب ١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) ابن هشام ١/ ١١٤، ١١٥، وتاريخ الطبري ٢/ ٢٨٥، والجدود: جمع الجد، وهو الحظ.

(٤) ابن هشام ١/ ٤٤، ١١٩، ١٢٢.



واستمرت (ولاية) خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة^(١). وفي وقت حكمهم انتشر العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بأطراق مكة بطون من قريش وهم حُلُول وصرم^(٢) متقطعون، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة، وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب^(٣).

ويذكر من أمر قصي: أن أباه مات وهو في حضن أمه، ونكح أمه رجل من بني عُذرة - وهو ربيعة بن حرام - فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام، فلما شب قصي رجع إلى مكة، وكان واليها إذ ذاك حُلَيْل بن حَبْشِيَّة من خزاعة، فخطب قصي إلى حليل ابنته حُبَي، فرغب فيه حليل وزوجه إياها^(٤)، فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش، أدت أخيراً إلى تغلب قصي على أمر مكة والبيت.

وهناك ثلاث روايات في بيان سبب هذه الحرب:

الأولى: أن قصياً لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل، رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر، وإن قريشاً رءوس آل إسماعيل وصر يحهم، فكلم رجالاً من قريش وبني كنانة في إخراج خزاعة وبني بكر عن مكة فأجابوه^(٥).

الثانية: أن حليلاً - فيما تزعم خزاعة - أوصى قصياً بالقيام على الكعبة وبأمر مكة، ولكن أبت خزاعة أن تمضي ذلك لقصى فهاجت الحرب بينهما^(٦).

الثالثة: أن حليلاً أعطى ابنته حبي ولاية البيت، واتخذ أبا غُبْشان^(٧) الخزاعي وكيلاً

(١) ياقوت: مادة «مكة»، وفتح الباري ٦ / ٦٣٣، ومروج الذهب للمسعودي ٢ / ٥٨.

(٢) الحلول - بضم الحاء - جمع حال بتشديد اللام بمعنى النازل: أي المقيم، والصرم - بكسر الصاد وسكون الراء: هو الطائفة من القوم ينزلون ببلهم ناحية من الماء، والجمع: أصرام.

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١١٧.

(٤) ابن هشام ١ / ١١٧، ١١٨ وحليل بضم الحاء مصغراً، وحَبْشِيَّة بفتح فسكون، وهو ابن سلول بفتح فضم، ابن عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء. وحُبَي بضم المهملة وتشديد الموحدة مع الإمالة، قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦ / ٦٣٣. وقال آخرون: حُبْشِيَّة بضم الحاء وسكون الباء وكسر الشين وتشديد الياء.

(٥) سيرة ابن هشام ١ / ١١٧، ١١٨، والطبري ٢ / ٢٥٥، ٢٥٦.

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ١١٨، والروض الأنف ١ / ١٤٢.

(٧) بضم الغين المعجمة وسكون الموحدة، واسمه المحرش أو سليم بن عمرو. فتح الباري ٦ / ٦٣٣، والروض الأنف ١ / ١٤٢.



لها، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبي، وكان في عقله شيء، فلما مات حليل خدعه قصي، واشترى منه ولاية البيت بأذواد من الإبل أو بزق من الخمر، ولم ترض خزاعة بهذا البيع، وحاولوا منع قصي عن البيت، فجمع قصي رجالاً من قريش وبنى كنانة لإخراج خزاعة من مكة، فأجابوه^(١).

وأيا ما كان، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أتاها قصي بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة، فقال: نحن أولى بهذا منكم، فقاتلوه فغلبهم قصي على ما كان بأيديهم، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي، فبادأهم قصي وأجمع لحربهم، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يغمُر بن عوف أحد بني بكر، فقضى بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وكل دم أصابه قصي منهم موضوع يشدخه تحت قدميه، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية، وأن يخلى بين قصي وبين الكعبة، فسمى يعمر يومئذ: الشداخ^(٢).

وكانت فترة تولى خزاعة أمر البيت ثلاثمائة سنة، واستولى قصي على أمر مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م^(٣)، وبذلك صارت لقصي ثم لقريش السيادة التامة والأمر النافذ في مكة، وصار قصي هو الرئيس الديني لهذا البيت الذي كانت تغد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة.

ومما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطعها رباعاً بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها، وأقر النساء وآل صفوان وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره^(٤).

ومن مآثر قصي: أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها إلى المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصيل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل على قريش؛ لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى^(٥).

وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف:

(١) تاريخ يعقوبى ١ / ٢٣٩، وفتح البارى ٦ / ٦٣٤، والمسعودى ٢ / ٥٨.

(٢) انظر التفصيل في: سيرة ابن هشام ١ / ١٢٣، ١٢٤، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٥ - ٢٥٨.

(٣) فتح البارى ٦ / ٦٣٣، والمسعودى ٢ / ٥٨، وقلب جزيرة العرب، ص ٢٣٢.

(٤) ابن هشام ١ / ١٢٤، ١٢٥.

(٥) ابن هشام ١ / ١٢٥، وإخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، ص ١٥٢.



١ - رياسة دار الندوة: ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور، وفيها كانوا يزوجون بناتهم.

٢ - اللواء: فكانت لا تعقد راية ولا لواء لحرب قوم من غيرهم إلا بيده أو بيد أحد أولاده، وفي هذه الدار.

٣ - القيادة: وهى إمارة الركب، فكانت لا تخرج ركب لأهل مكة فى تجارة أو غيرها إلا تحت إمارته أو إمارة أولاده.

٤ - الحجابة: وهى حجابة الكعبة، لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذى يلى أمر خدمتها وسدانتها.

٥ - سقاية الحاج: وهى أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء، يخلونها بشيء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.

٦ - رفاة الحاج: وهى طعام كان يصنع للحجاج على طريقة الضيافة، وكان قصى فرض على قريش خرجاً تخرجه فى الموسم من أموالها إلى قصى، فيصنع به طعاماً للحجاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد^(١).

كان كل ذلك لقصى، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد فى حياته، وكان عبد الدار بكره. فقال له قصى فيما يقال: لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش، فأعطاه دار الندوة واللواء والقيادة والحجابة والسقاية والرفادة، وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه، وكان أمره فى حياته وبعد موته كالدين المتبع، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم، ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبنائه بنى عمهم عبد الدار فى هذه المناصب، وافترقت قريش فرقين، وكاد يكون بينهم قتال، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح، واقتسموا هذه المناصب، فصارت السقاية والرفادة والقيادة إلى بنى عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بنى عبد الدار. وقيل: كانت دار الندوة بالاشتراك بين الفريقين، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم، فصارت السقاية والرفادة لهاشم والقيادة لعبد شمس، فكان هاشم بن عبد مناف هو الذى يلى السقاية والرفادة طول حياته، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف، وولى بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ، وبعده أبنائه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس. ويقال: إن قصياً

(١) ابن هشام ١ / ١٣٠، وتاريخ اليعقوبى ١ / ٢٤٠، ٢٤١.



٤٠ الرحيق المختوم
هو الذى قسم المناصب على أولاده، ثم توارثها أبناؤهم حسب التفصيل المذكور، والله أعلم^(١).

وكانت لقريش مناصب أخرى -سوى ما ذكرنا- وزعوها فيما بينهم، وكونوا بها دويلة - بل بتعبير أصح: شبه دويلة ديمقراطية - وكانت لهم من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه فى عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها، وهاك لوحة من تلك المناصب:

- ١- الإيسار: أى تولية قداح الأصنام للاستقسام، وكان ذلك فى بنى جُحج.
- ٢ - تحجير الأموال: أى تنظيم القربات والندور التى كانت تهدى إلى الأصنام، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات. وكان ذلك فى بنى سهم.
- ٣ - الشورى: وكانت فى بنى أسد.
- ٤ - الأشناق: أى تنظيم الديات والغرامات، وكان ذلك فى بنى تيم.
- ٥ - العقاب: أى حمل اللواء القومى، وكان ذلك فى بنى أمية.
- ٦ - القبة: أى تنظيم المعسكر، وكذلك قيادة الخيل، وكان فى بنى مخزوم.
- ٧ - السفارة: وكانت فى بنى عدى^(٢).

الحكم فى سائر العرب:

قد تقدم ذكر هجرات القبائل القحطانية والعدنانية، وأنها اقتسمت البلاد العربية فيما بينها، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعًا لملك العرب بالحيرة، وما كان منها فى بادية الشام كانت تبعًا للغساسنة، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية، وأما ما كان منها فى البوادي فى داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة.

والحقيقة أن هذه القبائل كانت تختار لأنفسها رؤساء يسودونها، وأن القبيلة كانت حكومة مصغرة، أساس كيانها السياسى الوحدة العصبية، والمنافع المتبادلة فى حماية الأرض ودفع العدوان عنها.

وكانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك، فكانت القبيلة تبعًا لرأى سيدها فى السلم والحرب، لا تتأخر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأى ما

(١) ابن هشام ١/ ١٢٩ - ١٣٢، ١٣٧، ١٤٢، ١٧٨، ١٧٩، وانظر: اليعقوبى ١/ ٢٤١.

(٢) تاريخ أرض القرآن ٢/ ١٠٤ - ١٠٦، والمعروف أن حمل اللواء كان من حق بنى عبدالدار كما تقدم، وإننا كانت القيادة العامة من حق بنى أمية.



يكون لدكتاتور قوى؛ حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله: فيم غضب، إلا أن المنافسة في السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس من بذل الندى وإكرام الضيف والكرم والحلم، وإظهار الشجاعة والدفاع عن الغيرة، حتى يكسبوا المحامد في أعين الناس، ولا سيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة في ذلك الزمان، وحتى تسمو درجاتهم عن مستوى المنافسين.

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة، فكانوا يأخذون من الغنيمة المرباع والصفى والنشيطه والفضول، يقول الشاعر:

لَكَ الْمِرْبَاعُ فِينَا وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ
والمرباع: ربع الغنيمة، والصفى: ما كان يصطفيه الرئيس، أى يختاره لنفسه قبل القسمة، والنشيطه: ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم. والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والفرس ونحوهما.

الحالة السياسية:

بعد أن ذكرنا حكام العرب يجمل بنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية حتى يتضح الوضع، فالأقطار الثلاثة التى كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية فى تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه. فقد كان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة - ولا سيما الأجانب - كان لهم كل الغنم، والعبيد عليهم كل الغرم، وبعبارة أوضح: إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، والحكومات كانت تستخدمها فى ملذاتها وشهواتها، ورغائبها، وجورها، وعدوانها. أما الناس فكانوا فى عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب، وما فى استطاعتهم التذمر والشكوى، بل كانوا يسامون الخسف والجور والعذاب ألواناً ساكتين، فقد كان الحكم استبدادياً، والحقوق ضائعة مهدورة.

وأما القبائل المجاورة لهذه الأقطار فكانوا مذبحين تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون فى أهل العراق، ومرة يدخلون فى أهل الشام.

وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية، حتى قال ناطقهم:

وما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد





ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم، أو مرجع يرجعون إليه، ويعتمدون عليه وقت الشدائد.

وأما حكومة الحجاز فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام، ويرونها قادة وسدنة المركز الديني، وكانت تلك الحكومة في الحقيقة خليطاً من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية، وحكمت في الحرم وما والاها بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان - كما أسلفنا - ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضع يوم غزو الأحباش.





ديانات العرب

كان معظم العرب يدينون بدين إبراهيم عليه السلام منذ أن نشأت ذريته في مكة وانتشرت في جزيرة العرب، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًا مما ذكروا به، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من هذا الدين، حتى جاء عمرو بن لُحَيّ رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له، ظنًا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء.

ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقًا؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاية البيت وأهل الحرم. وكان هبل من العقيق الأحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قریش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول صنم للمشركين وأعظمه وأقدسه عندهم ^(١). ومن أقدم أصنامهم مناة، كانت لهذيل وخزاعة، وكانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر حذو قديد، والمشلل: ثنية جبل يهبط منها إلى قديد ^(٢). ثم اتخذوا اللات في الطائف، وكانت لثقيف، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى ^(٣)، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة الشامية فوق ذات عرق، وكانت لقریش وبني كنانة مع كثير من القبائل الأخرى ^(٤). وكانت هذه الأصنام الثلاثة أكبر أوثان العرب، ثم كثر فيهم الشرك، وكثرت الأوثان في كل بقعة.

ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رثى من الجن، فأخبره أن أصنام قوم نوح - ودًا وسواعةً ويغوثة ويعوق ونسرا - مدفونة بجدة، فأتاها فاستشارها، ثم أوردتها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها.

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي، ص ٢٨.

(٢) صحيح البخاري، ح (١٦٤٣، ١٧٩٠، ٤٤٩٥، ٤٨٦١)، فتح الباري ٣/ ٤٩٩، ٨/ ٦١٣.

(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبي، ص ١٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨، ١٩، وفتح الباري ٨/ ٦١٢، وتفسير القرطبي ١٧/ ٩٩.



فأما ود: فكانت لكلب، بجرش بدومة الجندل من أرض الشام مما يلي العراق، وأما سواع: فكانت لهذيل بن مُدْرِكة بمكان يقال له: رُهاط من أرض الحجاز، من جهة الساحل بقرب مكة، وأما يغوث: فكانت لبني عُطَيْف من بني مراد، بالجرُف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان في قرية خَيَّوان من أرض اليمن، وخيوان: بطن من همدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي الكلاع في أرض حمير^(١).

وقد اتخذوا لهذه الطواغيت بيوتاً كانوا يعظمونها كتعظيم الكعبة، وكانت لها سدنة وحجاب، وكانت تهدي لها كما يهدي للكعبة، مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها^(٢).

وقد سارت قبائل أخرى على نفس الطريق، فاتخذت لها أصناماً آلهة وبنت لها بيوتاً مثلها، فكان منها ذو الخَلَصَة لدؤس وخَثْعَم وبُجَيْلَة، ببلادهم من أرض اليمن، بنبالة بين مكة واليمن، وكانت فِلس لبني طيى ومن يليها بين جبل طيى: سلمى وأجأ. وكان منها ريام، بيت بصنعاء لأهل اليمن وحمير، وكانت منها رضاء، بيت لبني ربيعة ابن كعب بن سعد بن زيد، مناة بن تميم، وكان منها الكَعْبَات لبكر وتغلب ابني وائل، ولإياد بِسَنْدَاد^(٣).

وكان لدؤس أيضاً صنم يقال له: ذو الكفين، ولبني بكر ومالك وملكان أبناء كنانة صنم يقال له: سعد، وكان لقوم من عذرة صنم يقال له: شمس^(٤)، وكان لخولان صنم يقال له: عُمَيَانِس^(٥).

وهكذا انتشرت الأصنام ودور الأصنام في جزيرة العرب، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت منها صنم، أما المسجد الحرام فكانوا قد ملأوه بالأصنام، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعنهما بعود في يده حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت، وكان في جوف الكعبة أيضاً أصنام وصور، منها صنم على صورة إبراهيم، وصنم على صورة إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - ويدهما

(١) صحيح البخارى، ح (٤٩٢٠)، فتح البارى ٦ / ٥٤٩، ٨ / ٦٦٨، والمنق لمحمد بن حبيب، ص ٣٢٧، ٣٢٨، وكتاب الأصنام لابن الكلبي، ص ٩ - ١١، ٥٦ - ٥٨.

(٢) ابن هشام ٨٣ / ١.

(٣) ابن هشام ١ / ٧٨، ٨٩، وتفسير ابن كثير: سورة نوح.

(٤) تاريخ يعقوبى ١ / ٢٥٥.

(٥) ابن هشام ١ / ٨٠.



الأزلام، وقد أزيلت هذه الأصنام ومحيت هذه الصور أيضًا يوم الفتح ^(١).

وقد تهادى الناس في غيهم هذا حتى يقول أبو رجاء العطاردي رحمته الله: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثُوَّةً من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به ^(٢).

وجملة القول: إن الشرك وعبادة الأصنام كانا أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام.

أما فكرة الشرك وعبادة الأصنام فقد نشأت فيهم على أساس أنهم لما رأوا الملائكة والرسل والنبين وعباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء والقائمين بأعمال الخير - لما رأوهم أنهم أقرب خلق الله إليه، وأكرمهم درجة وأعظمهم منزلة عنده، وأنهم قد ظهرت على أيديهم بعض الخوارق والكرامات، ظنوا أن الله أعطاهم شيئًا من القدرة والتصرف في بعض الأمور التي تختص بالله سبحانه وتعالى، وأنهم لأجل تصرفهم هذا ولأجل جاههم ومنزلتهم عند الله يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله سبحانه وتعالى وبين عامة عباده، فلا ينبغي لأحد أن يعرض حاجته على الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم يشفعون له عند الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لأجل جاههم، كذلك لا ينبغي القيام بعبادة الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم بفضل مرتبتهم سوف يقربونه إلى الله زلفى.

ولما تمكن منهم هذا الظن ورسخ فيهم هذا الاعتقاد اتخذوهم أولياء، وجعلوهم وسيلة فيما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وحاولوا التقرب إليهم بكل ما رأوه من أسباب التقرب؛ فنحتوا لمعظمهم صورًا وتمائيل، إما حقيقية تطابق صورهم التي كانوا عليها، وإما خيالية تطابق ما تخيلوا لهم من الصور في أذهانهم - وهذه الصور والتماثيل هي التي تسمى بالأصنام.

وربما لم ينحتوا لهم صورًا ولا تماثيل، بل جعلوا قبورهم وأضرحتهم وبعض مقراتهم ومواضع نزولهم واستراحتهم أماكن مقدسة، وقدموا إليها النذور والقرايين، وأتوا لها بأعمال الخضوع والطاعات، وهذه الأضرحة والمقرات والمواضع هي التي تسمى بالأوثان.

(١) صحيح البخارى، ح (١٦١٠، ٢٤٧٨، ٣٣٥١، ٣٣٥٢، ٤٢٨٧، ٤٢٨٨، ٤٧٢٠).

(٢) المصدر نفسه، ح (٤٣٧٦).





أما عبادتهم لهذه الأصنام والأوثان فكانت لهم فيها تقاليد وأعمال ابتدع أكثرها عمرو ابن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي فهو بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم **عليه السلام**، فكان من جملة عبادتهم للأصنام والأوثان أنهم:

- ١ - كانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها.. ويهتفون بها، ويستغيثونها في الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون.
- ٢ - وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها.
- ٣ - وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين، فكانوا يذبحون وينحرون لها على أنصائها، كما كانوا يذبحون بأسماؤها في أى مكان.

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى في قوله: [6 87 9 Z

[المائدة:٣]، وفي قوله: [P Q R S T U V W Z] [الأنعام: ١٢١].

- ٤ - وكان من أنواع التقرب إلى هذه الأصنام والأوثان أنهم كانوا يخصون لها شيئاً من مآكلهم ومشاربهم حسب ما يبدو لهم، وكذلك كانوا يخصون لها نصيباً من حرثهم وأنعامهم، ومن الطوائف: أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءاً لله أيضاً. وكانت عندهم عدة أسباب ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال، قال تعالى: [وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ لِمَنْ شَرَكَا بِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ] [الأنعام: ١٣٨].

- ٥ - وكان من أنواع التقرب إليها النذر في الحرث والأنعام، قال تعالى: [! " #

\$ % & ' () * + , - . / 0 1 2

[3 4 5 6 Z] [الأنعام: ١٣٨].

- ٦ - وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى.

قال سعيد بن المسيب: البحيرة: التى يمنع درها للطواغيت، فلا يجلبها أحد من الناس. والسائبة: كانوا يسيبونها لأهتهم، فلا يحمل عليها شىء. والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى، ثم تنثى بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى، ليس بينهما ذكر. والحامى: فحل الإبل يضرب الضراب المعداد (العشر من الإبل) فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شىء





وسموه الحامى^(١).

وقال ابن إسحاق: البحيرة بنت السائبة، هى الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر، سييت فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذننها، ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهى البحيرة بنت السائبة. والوصيلة: الشاة إذا أُنْأمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهم ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شىء فيشترك فى أكله ذكورهم وإناثهم. والحامى: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهم ذكر حمى ظهره، فلم يركب، ولم يجز وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها، لا يتتفع منه بغير ذلك، وفى ذلك أنزل الله تعالى: [أَمْ يَحْزَنُونَ عَلَى الْمَوْتِ إِذَا تُبْعِدُوا عَنْ الْأَرْضِ وَهُمْ عَلَيْهَا عَالِمُونَ أَمْ يَحْزَنُونَ عَلَى الْمَوْتِ إِذَا تُبْعِدُوا عَنْ الْأَرْضِ وَهُمْ عَلَيْهَا عَالِمُونَ أَمْ يَحْزَنُونَ عَلَى الْمَوْتِ إِذَا تُبْعِدُوا عَنْ الْأَرْضِ وَهُمْ عَلَيْهَا عَالِمُونَ] [المائدة: ١٣٩]، وقيل فى تفسير هذه الأنعام غير ذلك^(٢).

وقد مر عن سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم. وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعى يجر فَصْبَه (أى أمعاه) فى النار»^(٣)؛ لأنه أول من غير دين إبراهيم، فنصب الأوثان وسيب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى^(٤).

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم معتقدين أنها تقر بهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه، كما فى القرآن: [فَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا يَوْمَ الْحِسَابِ] [الزمر: ٣] وَتَعْبُدُونِ مِنْ

(١) صحيح البخارى، ح (٤٦٢٣)، فتح البارى ٨/ ١٢٣، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٨/ ٥٣، وما بين المعقوفين من صحيح ابن حبان.

(٢) ابن هشام ١/ ٨٩، ٩٠، وانظر: المنطق لابن حبيب، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٣) صحيح البخارى، ح (١٢١٢) فتح البارى ٣/ ٩٨، وح (٣٥٢١) فتح البارى ٦/ ٦٣٣، وح (٤٦٢٣) فتح البارى ٨/ ١٣٢.

(٤) نقله الحافظ فى الفتح ٦/ ٦٣٤ عن ابن إسحاق، ومثله عند ابن الكلبي فى الأصنام، ص ٨، وعند ابن حبيب فى المنطق، ص ٣٢٨، وبعض منها موجود فى صحيح البخارى مرفوعا، وبعض آخر عزاه الحافظ إلى صحيح مسلم من رواية أبى صالح عن أبى هريرة، انظر: فتح البارى ٨/ ٢٨٥.



دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ ^Z [يونس: ١٨].

وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والزَّلم: القدح الذى لا ريش له، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع:

- ١ - نوع فيه ثلاثة أسهم، أحدها: (نعم)، وثانيها: (لا)، وثالثها: (غُفل)، كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل؛ من نحو السفر والنكاح وأمثالهما. فإن خرج (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع (غفل) أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين.
- ٢ - ونوع فيه المياه والعقول والديات.

- ٣ - ونوع فيه (منكم) أو (من غيركم) أو (ملصق)، فكانوا إذا شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وبمائة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح، فإن خرج (منكم) كان منهم وسيطاً، وإن خرج عليه (من غيركم) كان حليفاً، وإن خرج عليه (ملصق) كان على منزلته فيهم، لا نَسَب ولا حِلْف ^(١).

ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من القمار، كانوا يقتسمون به لحم الجزور التى كانوا يتقمارون عليها؛ وذلك أنهم كانوا يشترون الجزور نسيئة فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسماً، أو عشرة أقسام، ثم يضربون عليها بالقداح، وفيها (الرابع) و (الغفل)، فمن خرج له قدح (الرابع) فاز، وأخذ نصيبه من الجزور، ومن خرج له (الغفل) خاب وغرم ثمنها ^(٢).

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، والكاهن: هو من يتعاطى الأخبار عن الكوائن فى المستقبل، ويدعى معرفة الأسرار ومن الكهنة من يزعم أن له تابعا من الجن، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا القسم يسمى عرافاً، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما. والمنجم: من ينظر فى النجوم أى الكواكب، ويحسب سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التى تقع فى المستقبل ^(٣).

(١) انظر: فتح البارى ٨/ ٢٧٧، وابن هشام ١/ ١٥٢، ١٥٣.

(٢) بسطه اليعقوبى فى تاريخه ١/ ٢٥٩، ٢٦١ مع اختلاف فى بعض الجزئيات.

(٣) اللسان وكتب اللغة.



والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا^(١).

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهي التشاؤم بالشئ، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا وعدوه حسناً، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أى بومة تطير في الفلوات، وتقول: صدى صدى أو اسقوني اسقوني، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح^(٢).

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم، لم يكونوا قد تركوه كله - مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وإهداء البدن - وإنما كانوا قد ابتدعوا في ذلك بدعاً:

منها: أن قريشاً كانوا يقولون: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاية البيت وقاطنو مكة، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومزلتنا - وكانوا يسمون أنفسهم الحُمس - فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل الله تعالى: [*Ze d c ba*]^(٣) [البقرة: ١٩٩].

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغي للحمس أن يَأْقُطُوا الأَقْط ولا يَسْلَأُوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما داموا حرماً^(٤).

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغي لأهل الحِلِّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى

(١) انظر: صحيح البخارى، ح (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، وصحيح مسلم ٨٣/١، ح (٧١).

(٢) انظر: صحيح البخارى، ح (٥٧٥٧، ٥٧٧٠) مع حاشيته الهندية.

(٣) ابن هشام ١/١٩٩، وصحيح البخارى، ح «١٦٦٥، ٥٤٢٠». وسُموا حُمساً؟ لتحمسهم لدينهم.

(٤) المصدر الأول نفسه ١/٢٠٢ وأَقْط الأَقْط: أى صنعه، والأَقْط: شئ يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمتص؛ أى يتقاطر ماؤه ويذهب، وسَلَأ السمن: أخرجه من اللبن.





الحرم، إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً^(١).

ومنها: أنهم أمروا أهل الحل ألا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الخمس، وكانت الخمس يحتسبون على الناس، يعطى الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطى المرأة المرأة الثياب، تطوف فيها، فإن لم يجدوا شيئاً فكان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بد منه فلا أحله

وأُنزل الله في ذلك: [" # \$ % & ' (Z [الأعراف: ٣١]. فإن تكرم

أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف، ولا يتتبع بها هو ولا أحد غيره^(٢).

ومنها: أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقباً يدخلون ويخرجون منه، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء براً، وقد نهى عنه القرآن، قال الله تعالى: [وَلَيْسَ الذِّبُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الذِّبَّ مِنْ أَتَقَىٰ وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]^(٣) Z [البقرة].

كانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان، والاعتقاد بالأوهام والخرافات - هي الديانة السائدة في جزيرة العرب، وقد وجدت اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئية سبلاً للدخول في ربوعها.

ولليهود دوران - على الأقل - مثلوهما في جزيرة العرب:

الأول: هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والآشورية في فلسطين، فقد نشأ عن الضغط على اليهود، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بُخْتَنَصْر سنة ٥٨٧ ق. م، وسبى أكثرهم إلى بابل أن قسماً منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز، وتوطن في ربوعها الشمالية^(٤).

(١) ابن هشام ١/ ٢٠٢.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٠٢، ٢٠٣، وصحيح البخاري، ح (١٦٦٥).

(٣) صحيح البخاري، ح (١٨٠٣، ٤٥١٢)، وتفسير ابن جرير: تفسير الآية، وفتح الباري ٦٢٢، ٦٢١/٣.

(٤) قلب جزيرة العرب، ص ٢٥١.





الدور الثاني: يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة تيطس الروماني سنة ٧٠م، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام، والتي حدثت في صدره. وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي: خيبر والنضير والمُصْطَلَق وقريظة وقينقاع، وذكر السهمودي أن عدد القبائل اليهودية التي نزلت بيثرب بين حين وآخر: يزيد على عشرين^(١).

ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تُبَّان أسعد أبي كَرْب، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب، واعتنق هناك اليهودية، وجاء بحبرين من بنى قريظة إلى اليمن، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها، ولما ولى اليمن بعده ابنه يوسف ذو نَوَاس هجم على النصاري من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية، فلما أبوا خدَّ لهم الأخدود وأحرقهم بالنار، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار، ويقال: إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً^(٢). وقع ذلك في شهر أكتوبر سنة ٥٢٣م^(٣). وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج؛ إذ يقول: [١ ٥ / . - , + 98765432 : ; < = > Z] البروج].

* أما الديانة النصرانية، فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة وبعض البعثات الرومانية، وكان أول احتلال الأحباش لليمن سنة ٣٤٠ م، ولكن لم يطل أمد هذا الاحتلال، فقد طردوا منها ما بين عامي ٣٧٠-٣٧٨ م^(٤)، إلا أنهم شجعوا على نشر النصرانية وتشجعوا لها، وقد وصل أثناء هذا الاحتلال رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات - اسمه فيميون - إلى نجران، ودعاهم إلى دين النصرانية، فلبوا دعوته، واعتنقوا النصرانية؛ لما رأوا من آيات صدقه وصدق دينه^(٥).

(١) وفاء الوفا ١/ ١٦٥ مع المصدر السابق.

(٢) انظر للتفصيل: ابن هشام ١/ ٢٠-٢٢، ٢٧، ٣١، ٣٥، وتفسير سورة البروج من كتب التفسير.

(٣) اليمن عبر التاريخ، ص ١٥٨، ١٥٩.

(٤) اليمن عبر التاريخ، ص ١٥٨، ١٥٩، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٢٢، ٤٣٢.

(٥) انظر في ذلك مفصلاً: ابن هشام ١/ ٣١-٣٤.



ولما احتلت الأحباش اليمن مرة أخرى عام ٥٢٥ م - كرد فعل على ما أتاه ذو نواس من تحريق نصارى نجران في الأخدود، وتمكن أبرهة الأشرم من حكومة اليمن - أخذ ينشر الديانة النصرانية بأوفر نشاط وأوسع نطاق، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كعبة باليمن، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ويهدم بيت الله الذى بمكة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطىء وغيرهما لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة أيضًا.

* أما المجوسية، فكان ما كان منها فى العرب المجاورين للفرس، فكانت فى عراق العرب وفى البحرين - الأحسا - وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربى، ودان لها رجال من اليمن فى زمن الاحتلال الفارسى.

* أما الصابئية - وهى ديانة تمتاز بعبادة الكواكب وبالاعتقاد فى أنواء المنازل وتأثير النجوم وأنها هى المدبرة للكون - فقد دلت الحفريات والتنقيبات فى بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين، وقد دان بها كثير من أهل الشام وأهل اليمن فى غابر الزمان، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية، تضعض بنى الصابئية وخذ نشاطها، ولكن لم يزل فى الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس أو مجاورين لهم فى عراق العرب وعلى شواطئ الخليج العربى ^(١). وقد وجد شئ من الزندقة فى بعض العرب، وكانت وصلت إليهم عن طريق الحيرة، كما وجدت فى بعض قرىش لاحتكاكهم بالفرس عن طريق التجارة.

الحالة الدينية:

كانت هذه الديانات هى ديانات العرب حين جاء الإسلام، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوراء، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق. وكثرت فيهم المعاصى، ونشأ فيهم على توالى الزمان ما ينشأ فى الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية، وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرًا بالغًا جدًا.

* أما اليهودية، فقد انقلبت رياء وتحكمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله،

(١) تاريخ أرض القرآن ٢/ ١٩٣ - ٢٠٨.



يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الخطوة بالمال والرياسة وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر، والتهاون بالتحاليم التي حض الله عليها، وأمر كل فرد بتقديسها.

* وأما النصرانية، فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطاً عجيباً بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي؛ لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب: فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.



صور من المجتمع العربي الجاهلي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها يجمل بنا أن نلقى شيئاً من الضوء على أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والحلقية، وفيما يلي بيانها بإيجاز:

الحالة الاجتماعية:

كانت في العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وكانت محترمة مصونة تُسَلُّ دونها السيوف، وتراق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في معظم أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن من حقها أن تفتت عليهم.

بينما هذه حال الأشراف، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة. روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها:

«إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم؛ يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نكابة الولد، فكان هذا النكاح [يسمى] نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت، ووضعت ومر [ت] ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، [ف] تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، [ف] تسمى من أحبت [منهم] باسمه، فيلحق به ولدها. لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن،



فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون، فالتاطته به، ودعى ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث [الله] محمدًا ﷺ بالحق هدم نكاح [أهل] الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم^(١).

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدتها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبى نساء المهفهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكان من المعروف في أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه، حتى حددها القرآن في أربع. وكانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها حتى نبى عنها القرآن [سورة النساء: ٢٢، ٢٣]، وكان الطلاق والرجعة بيد الرجال، ولم يكن لها حد معين حتى حددها الإسلام^(٢).

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط، لا نستطيع أن نخص منها وسطاً دون وسط، أو صنفاً دون صنف إلا أفراداً من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء، والطامة الكبرى هى الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن فلاناً ابنى، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الحجر»^(٣)، وقصة اختصام سعد بن أبى وقاص وعبد بن زَمْعَة في ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن ابن زمعة - معروفة^(٤).

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من يقول:

(١) صحيح البخارى، ح (٥١٢٧)، وسنن أبى داود: كتاب النكاح، باب وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية. وما بين المعقوفين من سنن أبى داود.

(٢) سنن أبى داود: باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث. وهذا الذى ذكره المفسرون في سبب نزول قوله تعالى: [Z ٧٧ v] [البقرة: ٢٢٩].

(٣) أبو داود: باب الولد للفراش، ومسنند أحمد ٢/ ٢٠٧.

(٤) وانظر لهذه القصة: صحيح البخارى، ح (٢٠٥٣، ٢٢١٨، ٢٤٢١، ٢٥٣٣، ٢٧٤٥، ٤٣٠٣، ٦٧٤٩، ٦٧٦٥، ٦٨١٧، ٧١٨٢) فتح البارى ٤ / ٣٤٢.



إنما أولادنا —أبينا— أكبادنا تمشى على الأرض
ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر
والإملاق: [الأنعام: ١٥١، النحل: ٥٨، ٥٩، الإسراء: ٣١، التكوين: ٨] ولكن لا يمكن لنا
أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشد الناس احتياجاً إلى البنين ليتقوا
بهم العدو.

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد كانوا
يحيون للعصبية القبلية ويموتون لها، وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة
تزيدها العصبية، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا
يسيرون على المثل السائر: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» على المعنى الحقيقي من غير
التعديل الذى جاء به الإسلام؛ من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس في الشرف
والسؤدد كثيراً ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التى كان يجمعها أب واحد، كما نرى
ذلك بين الأوس والخزرج، وعَبَسَ وذُبْيَان، وبَكْرَ وتَغْلِبَ وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماماً، وكانت قواهم
متفانية في الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين
والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها. وأحياناً كانت الموالاتة والحلف والتبعية
تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة. وكانت الأشهر الحرم رحمة وعوناً لهم على حياتهم
وحصول معاشهم. فقد كانوا يأمنون فيها تمام الأمن؛ لشدة التزامهم بحرماتها، يقول أبو
رجاء العطاردي: إذا دخل شهر رجب قلنا: مُنْصَلُّ الأَسِنَّة؛ فلا ندع رحماً فيه حديدة ولا
سهماً فيه حديدة إلا نزعناه، وألقيناه شهر رجب^(١). وكذلك في بقية الأشهر الحرم^(٢).

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعمية،
فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصوله، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة
تباع وتشترى وتعامل كالجملادات أحياناً، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من
الحكومات فجُلُّ همتها ملء الخزائن من رعيته أو جر الحروب على مناوئها.

(١) صحيح البخارى، ح (٤٣٧٦) ..

(٢) فتح البارى ٩١ / ٨.



الحالة الاقتصادية:

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معاش العرب. فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقوداً في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عُكاظ وذى المجاز ومَجَنَّة وغيرها.

وأما الصناعات، فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام، نعم، كان في داخل الجزيرة شيء من الزراعة والحرث واقتناء الأنعام، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعري عامّاً في المجتمع.

الأخلاق:

لا شك أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنيا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم، ويأبأها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ويفضي به إلى الدهشة والعجب، فمن تلك الأخلاق:

١ - الكرم: وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومُثْنٍ على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها، فيذبحها لضيفه. ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياح الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات.

وكان من نتائج كرمهم: أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمر، لا لأنها مفخرة في ذاتها؛ بل لأنها سبيل من سبل الكرم، ومما يسهل السَّرَف على النفس، ولأجل ذلك كانوا يسمون شَجَرَ العنب بالكَرْم، وَخَمْرَهُ بَيْنَتِ الكرم. وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك باباً من أبواب المديح والفخر، يقول عنتر بن شداد العبسي في معلقته:

ولقد شَرِبْتُ من المَدَامَةِ بَعْدَ ما رَكَدَ الهَوَاجِرُ بِالمَشُوفِ المُعْلِمِ^(١)

(١) المدامة: الخمر. الهواجر، جمع هاجرة: نصف النهار. المشوف: المجلو الصافي. المعلم: الذي وضعت عليه علامة.



بَزْجَاجَةٍ صَفراء ذات أَسِرَّة قُرْنَتْ بِأَزْهَرِ الشَّمَالِ مُفَدَّمٌ ^(١)
 فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ ^(٢)
 وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

ومن نتائج كرمهم: اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم؛ لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين؛ ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول: [**أَأَنْتُمْ أَكْثَرُ**] [البقرة: ٢١٩].

٢ - الوفاء بالعهد: فقد كان العهد عندهم دينًا يتمسكون به، ويستهنون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفى في معرفة ذلك قصة هاني بن مسعود الشيباني، والسَّمَوَّل بن عادي، وحاجب بن زرارة التميمي ^(٣).

٣ - عزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضميم: وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل.

٤ - المضي في العزائم: فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار، لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله.

٥ - الحلم، والأناة، والتؤدة: كانوا يتمدحون بها، إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود؛ لفرط شجاعتهم وسرعة إقدامهم على القتال.

(١) أسرة، جمع سرار: خطوط الوجه وأمثاله، والمراد هنا خطوط في الكأس. أزهـر: صفة إناء الخمر. مفدـم: الذي وضع عليه الفدام، وهو ما يوضع في فم الإبريق ليصفى به ما فيه.

(٢) لم يكلم. لم يجرح.

(٣) مضت قصة هاني تحت عنوان: الملك بالحيرة. وأما قصة سموأل فيقال: إن امرأ القيس أودع عنده دروعا، وأراد الحارث بن أبي شَمَر الغساني أن يأخذها منه فأبى، وتحصن بقصره في تيماء، وكان أحد أبناء سموأل خارج القصر، فأخذه الحارث وهدده بقتله إن لم يسلم الدروع، فأبى حتى قتل الحارث ابنه أمام عينيه.

وأما قصة حاجب فهي أنه استأذن كسرى في إنزال قومه على حدود كسرى لجذب أصابهم، فخاف كسرى منهم الغارة والفساد، فأبى إلا بالضمان، فضمن حاجب ورهنه قوسه، فوفى بوعده حتى توفي، وانتهى الجذب فرجع قومه إلى بلادهم، وذهب ابنه عطارد بن حاجب **رضي الله عنه** إلى كسرى يسترد قوس أبيه، فردها عليهم لوفاء أبيه.



٦ - السداجة البدوية، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها: وكان من نتائجها: الصدق، والأمانة، والنفور عن الخداع، والغدر.

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة - مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم - كانت سبباً في اختيار الله عز وجل إياهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية، وإصلاح المجتمع البشري؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضي إلى الشر، ويجلب الحوادث المؤلمة، إلا أنها كانت في نفسها أخلاقاً ثمينة، تدر بالمنافع العامة للمجتمع البشري بعد شيء من الإصلاح، وهذا الذي فعله الإسلام.

ولعل أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعا - بعد الوفاء بالعهد - هو عزة النفس والمضي في العزائم؛ إذ لا يمكن قمع الشر والفساد وإقامة نظام العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم. ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التي ذكرناها، وليس قصدنا استقصاءها.

